المحاضرة الرابعة: التنشئة الاجتماعية في ضوء علم النفس الاجتماعي

تسعى هذه المحاضرة إلى تحقيق الأهداف التالية:

- تعريف الطالب بأهمية التنشئة الاجتماعية في حياة الفرد، خاصة وأنها الدعامة الأولى التي ترتكز عليها مقومات شخصيته.
- تعريف الطالب بدور التنشئة الاجتماعية في سواء سلوك الأفراد وانحرافه.
- تعريف الطالب بمختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية.

تعتبر عملية التنشئة الاجتماعية من أولى العمليات ومن أخطرها شأنا في حياة الفرد، وذلك لأنها تمثل الدعامة الأولى التي ترتكز عليها مقومات شخصيته، حيث يمرّ الفرد منذ ولادته بمراحل عدة من خلالها يدخل في علاقة تفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه متأثرا بالمعايير والقيم السائدة ويكتسب خبرات تعدّل من سلوكه وتنمي شخصيته، لأداء دوره كفرد فاعل في المجتمع.

كما تساهم عملية التنشئة الاجتماعية في التوفيق بين دوافع الفرد ورغباته، ومطالب واهتمامات الآخرين المحيطين به، وبذلك تحول الفرد من طفل متمركز حول ذاته ومعتمد على غيره، هدفه إشباع حاجاته الأولية، إلى فرد ناضج يتحمل المسؤولية الاجتماعية ويدركها ويلتزم بالقيم والمعايير الاجتماعية السائدة، فيضبط انفعالاته ويتحكم في إشباع حاجاته وينشئ علاقات اجتماعية سليمة مع غيره.

أولا: مفهوم التنشئة الاجتماعية

يشير مصطلح التنشئة الاجتماعية في علم النفس الاجتماعي إلى العملية التي يتعلم عن طريقها الفرد كيف يتكيف مع الجماعة عند اكتسابه السلوك الاجتماعي الذي توافق عليه.

والتنشئة الاجتماعية ترجمة لمصطلح "Socialisation" في الفرنسية والانجليزية، كما يلاحظ في الاصطلاح العربي كلمة تنشئة التي تعني أقام –وهذا الإنشاء له صفة اجتماعية، أي فيما بين الأفراد– وبهذا يتميز المصطلح العربي عن المصطلح الانجليزي والفرنسي الذي يعني لديهما حرفيا عملية جعل الفرد مجتمعيا، وقد ظهرت كلمة تنشئة اجتماعية لأول مرة في الأدب الانجليزي سنة 1828 وكان المقصود بها تهيئة الفرد ليتكيف مع المجتمع.

ويعدّ دوركايم أول من استخدم مفهوم التنشئة الاجتماعية بمعناه التربوي وأول من عمل على صياغة الملامح العلمية لنظرية التنشئة الاجتماعية، فيقول دوركايم بصدد تعريفه لغاية التربية: "أن الإنسان الذي تريد التربية أن تحققه فينا ليس هو الإنسان على غرار ما أودعته الطبيعة بل الإنسان على غرار ما يريده المجتمع، فالتربية هي التأثير الذي تمارسه الأجيال الراشدة في الأجيال التي لم ترشد بعد، وتكمن وظيفتها في إزاحة الجانب البيولوجي من نفسية الطفل لصالح نماذج من السلوك الاجتماعي المنظم".

ويمكن تعريف التنشئة الاجتماعية على أنها: "عملية اجتماعية يتم من خلالها بناء الفرد بناءاً اجتماعياً، عبر عمليات التشكيل الاجتماعي التي يتلقاها من مختلف المؤسسات الاجتماعية التي تحتضنه، ومن المحيط الذي ينبثق منه عن طريق التفاعل الاجتماعي، ويتم خلال هذه العملية نقل قيم وثقافة وطرق حياة المجتمع أو يحدث العكس".

أو هي: "عملية تفاعل الفرد بما لديه من استعدادات وراثية مع البيئة التي يعيش فيها، ومن خلالها يتم تكون ونمو تدريجي لشخصيته الفريدة من جهة، واندماجه في الجماعة من جهة أخرى".

كما عرّفت بأنها: "عملية تعلم وتعليم وتربية، تقوم على التفاعل الاجتماعي، تهدف إلى اكتساب الفرد، طفلاً، فمراهقاً، فراشداً، فشيخاً سلوكاً ومعايير واتجاهات مناسبة لأدوار اجتماعية معينة تمكنه من مسايرة مجتمعه والتوافق الاجتماعي معه وتكسبه الطابع الاجتماعي وتيسر له الاندماج في الحياة الاجتماعية".

ثانيا: خصائص التنشئة الاجتماعية

تتميز عملية التنشئة الاجتماعية بعدة خصائص، أهمها ما يلي:

– أنها عملية من عمليات المجتمع الأساسية تهدف إلى بناء المجتمع وتماسكه واستقراره واستمرار نموه من جميع الجوانب المختلفة.

– هي عملية نمو يتحول خلالها الفرد من طفل يعتمد على غيره متمركز حول ذاته، هدفه إشباع الحاجات الفسيولوجية إلى فرد ناجح يدرك معنى المسؤولية الاجتماعية، وتحولها مع ما يتفق مع القيم والمعايير الاجتماعية .

– أنها عملية ترافق الفرد في مختلف مراحل حياته، بحيث يتم من خلالها دمج الفرد في المجتمع ودمج ثقافة المجتمع في الفرد، فهي تتصف بخاصية الديمومة والاستمرارية.

– هي عملية لا يقتصر القيام بها على الأسرة فقط، لكن لها وكلاء كثيرون مثل الأسرة والمدرسة وجماعة الأقران والمؤسسات الدينية ووسائل الإعلام المختلفة.

– التنشئة الاجتماعية لا تعني صين أفراد المجتمع في بوتقة واحدة بل تعني اكتساب كل فرد شخصية اجتماعية متميزة قادرة على التحرك والنمو الاجتماعي في إطار ثقافي معين .

– هي عملية نفسية واجتماعية في آن واحد، لا تقتصر على الجانب الاجتماعي فقط، وإنما هي عملية لها جوانب نفسية.

ثالثا: أهداف التنشئة الاجتماعية

مما لاشك فيه أن عملية التنشئة الاجتماعية عملية هادفة، تتداخل فيها مجموعة من العمليات الثقافية والاجتماعية والتي يصبح الفرد من خلالها قادرا على استيعاب قيم ومعايير المجتمع الذي يعيش فيه وذلك على المستوى المعرفي والاجتماعي والانفعالي.

وتختلف أهداف التنشئة الاجتماعية من ثقافة إلى أخرى، إلا أن المهتمين بها يتفقون على الأهداف التالية:

- تعلم المعايير الاجتماعية والقيم والعادات والتقاليد والضوابط المتعارف عليها في ثقافة المجتمع، وتعليم الجيل الصاعد ماهية الصح والخطأ في السلوك والممارسات الحياتية لتحقيق التكيف الأمثل والتآلف مع الآخرين.
- تعليم الطفل المهارات التي تمكنه من الاندماج في المجتمع، والتعاون مع أعضائه، والاشتراك في نواحي الأنشطة المختلفة وتعليمه أدواره، ما له وما عليه، وطريقة التنسيق بينهما وبين تصرفاته في مختلف المواقف، وتعليمه كيف يكون عضواً نافعاً في المجتمع، وتقويم وضبط سلوكه.
- تحقيق الاستقلالية الذاتية للطفل، أي الاعتماد على النفس والثقة بها من خلال إتاحة الفرصة للتعود على الذات، وتعويده على التعبير عن نفسه، ومواجهة مواقف الحياة المختلفة وكيفية حل المشكلات والمشاركة في اتخاذ القرارات.
- غرس الهوية الوطنية عند الناشئة وفق قدراتهم وثقافة مجتمعهم لتحقيق الانتماء على أكمل وجه وغياب هذه الهوية يعني الضياع، فهي الخصوصية الذاتية للمجتمع، التي من خلالها يكون الانطلاق والتفتح على ثقافة الشعوب الأخرى.
- تحقيق النضج النفسي، فلكي تكون الأسرة سليمة متمتعة بالصحة النفسية يجب أن تكون العلاقات السائدة بين أفرادها متزنة سليمة، وإلا تعثر الطفل في نموه النفسي، والواقع أن الأسرة تنجح في تحقيق النضج النفسي للطفل من خلال تفهم الوالدين وإدراكهما الحقيقي لمعاملة هذا الطفل والوعي بحاجاته السيكولوجية، والعاطفية المرتبطة بنموه، وتطور نمو فكرته عن نفسه، وعن علاقته بغيره من الناس، وإدراك الوالدين لرغبات الطفل، ودوافعه التي تكون وراء سلوكه والتي قد يعجز عن التعبير عنها.

رابعا: مؤسسات التنشئة الاجتماعية

التنشئة الاجتماعية هي وسيلة للاتصال بين الماضي والحاضر والانتقال إلى المستقبل، فهي أيضا وسيلة للتغيير والتطبع الاجتماعي بما يمكن إدخاله من قيم ومعايير جديدة تتماشى والواقع المعاش والأهداف المستقبلية، وتشترك عدة مؤسسات رسمية وغير رسمية في عملية التنشئة الاجتماعية مثل الأسرة، المدرسة، جماعة الرفاق، دور العبادة، وسائل الإعلام .

1- الأسرة:

تعدّ الأسرة ذات أهمية كبيرة في تشكيل شخصية الأفراد، لأنها النواة التي ينشأ فيها الفرد، فهي الجماعة الأولى التي يتصل بها، كما أنها الممثلة الأولى للثقافة وأقوى الجماعات تأثيراً في سلوكه. ويؤثر

سلوك الوالدين والراشدين المحيطين بالطفل على تشكل الخصائص الشخصية المرغوب فيها لدى هذا الأخير، ويأتي هذا التأثير من خلال الرعاية والإثارة اللغوية والمعرفية وضبط سلوك الطفل.

فالأسرة هي المسؤولة عن التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي، وتلعب دوراً أساسياً في سلوك الأفراد بطريقة سوية، أو غير سوية، من خلال النماذج السلوكية التي تقدمها لصغارها، فأنماط السلوك والتفاعلات التي تدور داخل الأسرة، هي النماذج التي تؤثر سلباً أو إيجاباً في التربية المرجعية للناشئين.

لذا فإن الأسرة كانت وما زالت أقوى مؤسسة اجتماعية تؤثر في مكتسبات الإنسان المادية والمعنوية، فهي المؤسسة الأولى في حياته، وهي المؤسسة المستمرة معه استمرار حياته طفلا فمراهقاً فشاباً فزوجاً، فإذا كانت الأسرة تعمل على الاستمرار المادي للمجتمع بإمداده بأعضاء جدد عن طريق التناسل وبهذا تحفظ كيانه العضوي، فإنها تتولى أيضا الاستمرار المعنوي لهذا المجتمع، وذلك بتأصيل قيمه ومعايير سلوكه واتجاهاته وعوائده وطرائقه عند أطفال المجتمع، وبهذا تحفظ كيانه.

2- المدرسة:

تأتي المدرسة في المرتبة الثانية من حيث الأهمية في تنشئة الطفل، خاصة بعد أن عمم التعليم وأصبح إجبارياً في سنواته الأولى في أغلب الدول، وتحملت المدرسة تعليم الصغار بالتعاون مع الأسرة من أجل توسيع مدارك الطفل وجعله يحب المعرفة والتعليم، مما أدى إلى بروز المدرسة كمؤسسة اجتماعية مهمة، لها أثرها الفعال في مختلف جوانب الطفل النفسية، الاجتماعية، والأخلاقية، والسلوكية، خاصة وأن الطفل في السنوات الأولى من عمره يكون مطبوعاً على التقليد والتطبع بالقيم التي تسود مجتمعه الذي يعيش فيه، فهو يتأثر في الغالب في الجو الاجتماعي الذي يعيشه في المدرسة.

لذا فإن المدرسة تعدّ عاملا عظيم الأثر في تكوين شخصية الفرد التكويني العلمي والتربوي السليم، وبالتالي فإن دورها هو مكمل لدور الأسرة، حيث تعمل على الرعاية النفسية للطفل وذلك بإدماجه مع زملاءه من خلال مشاركته في أنشطة عديدة من قراءة ورياضة ... الخ، ومن الناحية الاجتماعية تعمل على تنمية الجانب الاجتماعي بنقل ثقافة وقيم ومعايير المجتمع، ومن الناحية الأخلاقية تعمل على تحسين سلوك الطفل وزرع فيه صفات الاحترام والصدق والتعاون مع الآخرين ... الخ.

كما تعمل من الناحية العلمية والتربوية على تنمية قدراته الفكرية وإكسابه خبرات وتوسيع خياله من أجل الإبداع والابتكار، ومن الناحية الاقتصادية توفر له تكوين مهني بما يناسب مستواه الفكري وما يطلبه المجتمع من أيد عاملة، ومن هنا تبرز أهمية المدرسة كمؤسسة اجتماعية أوكل إليها المجتمع مهمة تربية الطفل وتدريبه على أساليب السلوك التي يرتضيها المجتمع .

3- الجماعة:

تشترك الكثير من الدراسات في مجال علم النفس الاجتماعي على اعتبار الجماعة عنصرا هامّا في تحقيق التماسك والانسجام داخل المجتمع باعتبارها خلية أساسية بالنظر إلى جملة الأدوار المطالبة بالقيام بها سواء على المستوى الفردي، أي بمعنى مساعدة الفرد على تحقيق التأهيل الاجتماعي وتوفير له الظروف التي تمكنه من تحقيق التفاعل النفسي والاجتماعي، أو المستوى الجماعي بحيث تحافظ الجماعة على

استمرارية المجتمع بشكل فعال وتضمن له الكثير من أدوات البقاء والقدرة على التكيف مع التحولات المختلة التي يعرفها العالم.

وتشكل جماعة الأقران النافذة الأولى التي يطل منها الطفل على الحياة الاجتماعية، وذلك بما تحققه للطفل من علاقات اجتماعية قائمة على خلاف ما يجري في إطار الأسرة.

وهم جماعة من الأفراد يلتقون في الميول والدوافع والطموحات والحاجات والاهتمامات الاجتماعية ويقومون بأدوار اجتماعية معينة، سواء كانت هذه الأدوار آنية أو دائمة وكل ذلك بشكل متعارف عليه تلقائيا في غالب الأحيان.

ويعتبر دور جماعة الأقران مهم في عملية التنشئة الاجتماعية، حيث يتمحور في تكوين معايير اجتماعية جديدة وتنمية اتجاهات نفسية جديدة للمساعدة في تحقيق الاستقلال، وإتاحة الفرصة للتجريب، وإشباع حاجات الفرد للمكانة والانتماء، علاوة على أن الأقران يؤثرون في بعضهم البعض بشكل كبير، وذلك لما تتميز به جماعة الأقران عن الجماعات الأخرى من خصائص أساسية تزيد من تأثيرها وهي :

-التجانس العمري (أعضاء هذه الجماعة من فئة عمرية واحدة)

- تشكل هذه الجماعة على أساس الجنس الواحد (ذكور أو إناث).

-التفاعل بين الأعضاء بشكل مباشر، وجها لوجه .

-تعدّ جماعات صغيرة (يتميز عدد أفرادها بالمحدودية).

- تتكون على نحو عضوي، بحكم عدة عوامل وهي: الجوار ، السكن ، الانتماء المدرسي .

4- المسجد:

لقد كان هدف الرسالات السماوية التي أنزلها الله عز وجل على رسله هداية بني البشر وإحداث تغيير على المستوى الفكري، وبالتالي على المستوى السلوكي لإبعاد الفرد على مهاوي الرذيلة والانحلال، فالتغيير إذن هو أساس أي عمل جاد وخاصة العمل التربوي، لأنه يوجه مسار الفرد بالتعليمات والأوامر الربانية الحقة، ولعلّ أول مؤسسة عملت على صقل العقول وتهذيب النفوس وتغيير المجتمعات هي المسجد وهو أول مؤسسة دينية تنشيئية بنيت بعد الهجرة، ولعلّ وظيفة المسجد أكبر من أن تحدد في أي إطار كان، فهي تساوي في حجمها ووظيفتها جميع المؤسسات التنشيئية الأساسية .

وبالتالي، فإن المساجد تقوم بدور فعال في تربية الطفل وتشكيل شخصيته وتنشئته الاجتماعية، لما تتميز به من خصائص فريدة، وهي تعليم الفرد والجماعة التعاليم الدينية التي تحكم السلوك بما يتضمن سعادة الفرد والمجتمع، والدعوة إلى ترجمة هذه التعاليم إلى سلوك عملي.

4- وسائل الإعلام:

لقد أصبح من المعروف أن وسائل الإعلام بمختلف أنواعها لها دور بالغ الأهمية في التأثير على الشخصية مما يجعلها تنهج سلوكا دون غيره نتيجة التأثر بإحدى أنواع وسائل الإعلام الموظفة في عالمنا.

ولهذا تعدّ وسائل الإعلام من أقوى مؤسسات التنشئة الاجتماعية بمختلف أنواعها، سواء أكان ذلك في صياغة مكتوبة كالجرائد والمجلات والدوريات والنشرات والكتيبات ومثيلاتها، أم كان بواسطة أجهزة

التوصيل الالكترونية السمعية والمرئية مثل المذياع والتلفاز وأجهزة التسجيل السمعي والمرئي، حيث تلعب كل وسيلة منها دورا كبيرا في التنشئة الاجتماعية للفرد. ويزداد انتشار الوسائل الإعلامية المكتوبة بين طبقة المثقفين والبالغين في العمر، بينما تبدو أهمية الوسائل الإعلامية الالكترونية بين أفراد الطبقة الوسطى والذين لم ينالوا حظهم من التعليم إلا قليلا. ولا ينكر أحد خطورة الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام كافة ولاسيما التلفاز على وجه الخصوص في التنشئة الاجتماعية للفرد، لما تتركه من آثار تراكمية في اتجاهاته وسلوكياته بشكل عام، وقد حذر رجال علم النفس والتربية والدين من خطورة ما يقدم للأطفال من عروض تلفزيونية في صور أسطورية وكرتونية متضمنة لمشاهد العنف والإثارة والخيال، لما لها من تأثير ضار على تفكير الصغار.

ختاما، يمكن أن نقول أن التنشئة الاجتماعية من أخطر العمليات شأناً في حياة الفرد، لأنها تلعب دورا أساسيا في تكوين الشخصية الاجتماعية لهذا الأخير، فبها يصبح الفرد واعياً ومستجيباً للمؤثرات الاجتماعية بكل ما تشتمل عليه هذه المؤثرات من ضغوط، وما تفرضه عليه من واجبات، وما يحدث للطفل – بل وللراشد أيضا – من تغيرات، وما يتعرض له من مؤثرات اجتماعية كلما دخل في دور من الأدوار الاجتماعية غير المؤلفة له، والتي تتطلب منه تعديلا لسلوكه، أو اكتسابه لأنماط جديدة من السلوك، وذلك من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية.